

الباب الثاني فريد الدين عطار وحكاية الشيخ صنعان

الفصل الأول حياة فريد الدين عطار

الشيخ العطار هو محمد بن أبي بكر إبراهيم بن إسحق، وكنيته أبو حامد، ولقبه فريد الدين، وشهرته العطار النيسابوري، ولد في نيسابور عام 513 هـ.⁸

عرف فريد الدين النيسابوري بالعطار لأنه كان يعمل بالعطارة والطب، ويقال إن العطار قد ورث العطارة عن أبيه، حتى قيل إنه أصبح مالكا في نيسابور.

وتقع في مدينة نيسابور في إيران وأمضى العطار به ثلاثة عشر عاماً من طفولته، التزم فيها ضريح الإمام الرضا ثم أكثر بعد ذلك من الترحال فزار الري والكوفة ومصر ودمشق ومكة والمدينة والهند وتركستان ثم عاد فاستقر في كدكن قريته الأصلية واشتغل تسعاً وثلاثين سنة من حياته في جمع أشعار الصوفية وأقوالهم.⁹

أورد الجامي في نفحات الإنسان قصته قال انها كانت السبب الذي دفعه للنزوع نحو أهل السلوك والطريقة: إن كان يعمل في دكانه، عندما أقبل عليه درويش وطلب منه (شيئاً لله) فلم يعطه، فقال له الدرويش: كيف ستكون ميتتك؟ فقال له العطار: مثلما تموت أنت. فقال الدرويش: وهل يمكنك أن تموت كما أموت؟ فقال: ولم لا. فوضع الدرويش جفنة خشبية 8 بيده تحت رأسه وهو يقول: الله.

⁸. دولتشاه، تذكيرة الشعراء، (ليدن، 1900م). ص 187

⁹. فريد_الدين_عطار/ http://ar.wikipedia.org/wiki/عطار

ثم فاضت روحه فوراً. فتغير حال العطار وأغلق باب دكانه، ونحا نحو أهل الطريقة.¹⁰

أما تاريخ وفاة الشيخ العطار فقد اختلفت فيه آراء أصحاب التواريخ اختلافاً كبيراً. فالقاضي نورالله التستري يجعله في سنة 627 هجرية.¹¹

وأهم مؤلفاته الكتب الآتية: *پند نامه* (*Yendhu Naméh*)، و*منطق الطير*، و*تذكرة الأولياء*، و*الهي نامه* (*Élahi Naméh*)، و*مختار نامه*، و*مصيبت نامه* (*Mosibat Naméh*)، و*جواهر نامه*، و*شرح القلب*، و*اشتر نامه*، و*مظهر العجائب والديوان*.¹²

وكان كثيراً من كُتبه شعرياً فارسيّاً، مثل *منطق الطير*، و*پند نامه* (*Yendhu Naméh*) أي كتاب النصيحة وهو كتاب صغير مجمل مليء بالمواعظ الأخلاقية، وتحدث العطار نفسه في كتاب *تذكرة الأولياء*. ورأى الباحث كان الشيخ العطار هو الشاعر والصوفي.

¹⁰ .الدكتور بديع محمد جمعة، *منطق الطير*، (بيروت – لبنان: دار الأندلس، 1979). ص 21

¹¹ .الدكتور بديع محمد جمعة، *منطق الطير*، (بيروت – لبنان: دار الأندلس، 1979). ص 42

¹² .فريد الدين_عطار <http://ar.wikipedia.org/wiki/عطار>

الفصل الثاني التعريف بحكاية الشيخ صنعان والحقيقة عن هذه الحكاية

أ. حكاية الشيخ صنعان

حكاية الشيخ صنعان من القصص التي لها مكانة خاصة في أدب العارف الكبير مولانا العطار، ترد لنا القصة في كتابه منطق الطير والذي تدور أفكاره حول مجموعة من الطيور باحثاً عن معشوقها الحقيقي.

ولم تكد أنواع الطيور تصمم على الوصول إلى السمرغ حتى عادت فوجدت الطريق إليها طويلة متعبة، فأخذ كل طائر منها يلتمس لنفسه عذراً من الأعذار. فاعتذر البلبل بأنه مشغول بحب الوردة النضيرة واعتذرت الببغاء بأن جمالها جعلها للأقفاص أسيرة، واعتذر الطاووس بادعاء الخجل والتواضع لاقتران اسمه بقصة إخراج آدم وحواء من الجنة، واعتذرت البطة بعدم استطاعتها البعد عن الماء؛ واعتذرت الحجلة بأنها لاتستطيع البعد عن الجبال والأدوية؛ واعتذرت البجعة بعدم استطاعتها مغادرة البحيرات الصافية؛ واعتذرت البومة بعدم استطاعتها مغادرة الأماكن الخربة التي اعتادت أن ترتادها، وأبدى طائرهما إعجابه بقدرته على منح الملك ألقابهم، واعتذر الصقر بأنه لا يستطيع أن يترك مكانه الممتاز، واعتذرت الصعوبة بأنها ضعيفة هزيلة يقعداها الوهن والسقم. وجميع هذه الأعذار ترمز إلى الأعذار التي يبديها الأدميون عندما يقعون عن التماس عالم الروح ويعجزون عن المضي فيه، وقد أخذ الهدد الحكيم يجيب

عليها واحداً واحداً ويتمثل بطائفة من الحكايات والقصص للتدليل علي آرائه وأفكاره.

الهدهد يرشدهم أن عزيمة السلوك لايدفعها القوة أوالضعف أوالكفر والإيمان، بل تدفعها قوة ترتفع عن ملازمة الكفر أوالإيمان. فنراه يقول تعقيباً على كلام الطيور وتحيرهم في كلامه بعدما أوضح لهم أن الروح والجسد حجب تحجب الوصول لنهاية الطريق، وأن العاشق الحقيقي هو من يتخلى عن هذا الحجب ليرتفع إلى صفة العاشق الحقيقي.

وبعد أن يكمل العطار إيضاحه حول موقع العشق بين الكفر والإيمان وكيف أنه أداة السالك الوحيدة القادرة على إيصاله في نهاية المطاف بمعشوقه؛ يخرج لنا العطار بقصة لها عنوان خاص وتركيبية خاصة تخرج عن سياق الموضوع إلا أنها جاءت لتخدم الفكرة السابقة.

حكاية الشيخ صنعان وعقده لباس الزنار بعلت عشقه الفتاة المسيحية. وملخص الحكاية يدور حول الشيخ صنعان الملازم للحرم مدى خمسين عاماً، ويرافقه أربعمائة من مريديه ذوى المنافسة في الرياضة الروحية، فهم لايعرفون الملل أو الراحة. والشيخ صنعان له مواهب ربانية فهو صاحب الكشف وصاحب السر.

الشيخ صنعان الذي كان يقطن مكة مع أربعمائة من مريديه، وكان على قدر كبير من الصلاح والتقوى، ثم رأى في منامه انه رحل إلى بلاد الروم وسجد للصنم، ورؤية الصالحين صادقة. فأسرع بالذهاب إلى بلاد الروم مع مريديه، وهناك أغرم بفتاة مسيحية غراماً شديداً بعد كشفها عن حجاب وجهها اضطربت نار العشق في قلب الشيخ

صنعان وضاع متاعه من دينه وتقواه، ولما ادركت الفتاة حبه لها ومقدار شغفه بها عرضت عليه شروطها وهي: السجود أمام الصنم، واحراق القران، وشرب الخمر، والبعد عن الايمان.

فقبل في بداية الامر شرب الخمر دون غيرها، وبعد أن تمكنت منه الخمر وسيطر عليه العشق، قبل أن يكون مسيحياً ثم عرض على الفتاة الاقتران به، فاشتترطت أن يكون صداقها خدمة الخنازير عاما كاملا، فقبل الشيخ. حاول مريدوه إصلاحه دون جدوى فأسرعوا بالعودة إلى الكعبة، وكان للشيخ صنعان صديق يقطن الكعبة حين علم هذا الصديق بما حدث للشيخ صنعان اغتم وحزن حزنا شديدا. فأسرع بالسفر إلى بلاد الروم مع المريدين للحاق بالشيخ، وواصلوا التضرع والتشفع أربعين ليلة فاستجاب الله لتضرعهم، وذات ليلة رأى أحد المريدين الرسول-عليه السلام-فطلب منه الشفاعة للشيخ عند الله، فتشفع له الرسول الكريم، فتخلى الشيخ عن ما فعله، وعاد الجميع إلى مكة مرة ثانية.

وبعد رحيله رأت الفتاة في نومها أن الشمس قد سقطت بجانبها وطلبت منها الإسراع صوب الشيخها، فأسرعت خلف الشيخ حتى وصلت اليه بالحجاز، فاضطرب الشيخ حين علم بقدمها ولكنها طلبت منه أن يعرض عليها الإسلام، وما أن أسلمت حتى أسلمت روحها.¹³

ب. حقيقة عن حكاية الشيخ صنعان

هذه المسألة يجدر بنا أن نعرض لقصة الشيخ صنعان كما ذكرها العطار، ثم نقارنها بالقصص القرية الشبه منها:

¹³. الدكتور بديع محمد جمعة، منطلق الطير، (بيروت - لبنان: دار الأندلس، 1979). ص 72 - 73

كان الشيخ صنعان يقطن مكة مع أربعمائة من مريديه، وكان على قدر كبير من الصلاح والتقوى، ثم رأى فيما يرى النائم أنه رحل إلى بلاد الروم وسجد للصنم، ورؤية الصالحين صادقة، فأسرع بالذهاب إلى بلاد الروم مع مريديه، وما أن وصلوا حتى رأوا فتاة، تجلس على سقف بناء مرتفع، وكانت غاية في الجمال فتعلق بها قلب الشيخ في الحال، فساد الاضطراب جميع مريديه، فبدلوا له النصح دون جدوى، وأخيرا أصبحت خلوة الشيخ محلة الحبيب، ولما أدركت الفتاة المقدار شغفه بها عرضت عليه شروطها وهي: ... إلى الأخير

هذه قصة الشيخ صنعان كما رواها العطار، فما أصلها إن لم يكن العطار مبدعها؟
يذكر أحمد الأبشيهي في كتابه: المستطرف في كل فن مستظرف الجزء الأول¹⁴ أن الشيخ عبد الله الأندلسي كان يسكن بغداد، وكان من أصحابه الجنيد والشبلي، وعدد مريديه اثنا عشر ألفاً، ثم ذهب إلى بلاد الروم وتعلق بفتاة الأمير هناك فتخلى عنه أصحابه وعادوا إلى بغداد، ثم حول أن يقترن بالفتاة فكان صداقها خدمة الخنازير. فعاد إليه أصحابه مرة أخرى ولكنه لم يأبه بنصحهم. ولكن بعد أيام ثلاثة فوجئوا بالشيخ أمامهم وقد تخلى عن كفره وعاد إلى سابق عهده. ثم عادوا جميعاً إلى بغداد، فاحتفى به الجميع وعلى رأسهم الخليفة.

¹⁴. الدكتور بديع محمد جمعة، منطق الطير، (بيروت - لبنان: دار الأندلس، 1979). ص 73

ولكن الفتاة المسيحية تعلقت به وأسرت خلفه إلى بغداد وقد ساعدها في ذلك الخضر بعد أن أخبرها بضرورة اعتناقها الإسلام، فاعتنقته.

وبعد وصولها بغداد لزمت زاوية شيخها وأكثرت من العبادة حتى هزلت فمرضت وتوفاها الله، فحزن الشيخ عليها حزنا أودى بحياته.¹⁵

ونحن نرى بعض التقارب بين الحكايتين في ذهاب الشيخين إلى بلاد الروم ثم كون الصداق في كلا الحالتين رعاية الخنازير، ثم توبة الشيخين وعودتهما إلى ديارهما، ثم لحاق الفتاة في كل منهما بشيخها واعتناقهما الإسلام.

ولكن هناك أوجه للخلاف بين الحكايتين، فالشيخ صنعان يسكن مكة أم الشيخ عيد الله الأندلسي فيسكن بغداد، كذلك الاختلاف في عدد المريدين وفي عدد صحبوا كلا من الشيخين في رحلته إلى بلاد الروم. كما نجد أن الخليفة له ذكر في قصة الأندلسي ولا أثره له في حكاية الشيخ صنعان. واختلاف الحكايتين كذلك في سبب وفاة المعشوقة، فالأبشيهي ذكر أن الوفاة نتيجة للعبادة المتصلة، أما العطار فقد جعل أثر له في قصة العطار.

وعلى هذا فربما يرى البعض تأثر العطار بمظاهر الالتقاء بينه وبين ما ذكره الأبشيهي ولكن مظاهر الاختلاف بينهما تجد من الموافقة على تأثر العطار بما ذكره الأبشيهي.

ومن بين الذين ذهبوا إلى الدير كذلك مدرك بن علي الشيباني وقد كان يعيش بالعراق، وكان يذهب إلى الدير كثيرا، فتعلق بحب فتى مسيحي اسمه (عمرو) فتخلى عن

¹⁵. ياقوت الحموي، معجم البلدان، (القاهر: 1916). ج 4، ص 122 - 126

الإسلام واعتنق المسيحية ونظم شعرا وصف فيه حاله هذه، كما تحدث فيه عن رسوم وآداب المسيحيين.¹⁶ ولكننا لانجد في هذه القصة تقاربا بينها وبين قصة الشيخ صنعان إلا ذهابهما إلى الدير، مما يجعلنا نرفض تأثر العطار بهذه القصة.

وشيوخ آخر هو (ابن السقا) وكان قارئاً للقرآن حسن الصوت وكان يعيش في بغداد ثم ذهب إلى بلاد الروم حاملاً رسالة من الخليفة، فوقع هناك في حب فتاة الملك فطلب الاقتران بها، فاشترطوا عليه اعتناق النصرانية فقبل. ولكن لا يوجد دليل على أن العطار تأثر بهذه القصة ونسج قصة على منوالها، فلا وجه للشبه بينهما إلا في الذهاب إلى الروم واعتناق المسيحية من أجل المعشوقة. ولكن إذا كان العطار لم يأخذ قصته من هذه ولا من تلك، فمن أين أخذها؟

يقول الأستاذ مجتبي مينيوي: وقد أخذ العطار هذه الحكاية من كتاب الغزالي، فقد ورد هذا الاسم في تحفة اللوك... والمقصود من الشيخ صنعان عند العطار هو، الشيخ عبد الرازق الصنعاني الذي ذكر في تحفة الملوك، ولقد أورد الشاعر التركي كلشهرى الذي ترجم منطق الطير إلى التركية حكاية الشيخ صنعان تحت عنوان (حكاية الشيخ عبد الرازق).¹⁷

¹⁶. فروزانفر، شرح ونقد وتحليل آثار شيخ فريد الدين محمد عطار نيشابوري، (طهران: 1340هـ). ص 325 - 328

¹⁷. الدكتور بديع محمد جمعة، منطق الطير، (بيروت - لبنان: دار الأندلس، 1979). ص 75

وقد اتفق الأستاذ فروز انفر¹⁸ مع مينوى في ذلك، فأرجع قصة الشيخ صنعان إلى ما جاء بالبَاب العاشر من تحفة الملوك لأبي حامد الغزالي.

ووجب علينا أن نعرض قصة الشيخ عبد الرازق الصنعاني كما ذكرها الأستاذ فرور انفر في كتابه (شرح أحوال ونقد وتحليل آثار شيخ فريد الدين محمد عطار نيشابوري)¹⁹.

في حكايات مثل هذه، كان في الحرم شيخ اسمه عبد الرازق الصنعاني وكان رجلاً عظيماً وصاحب كرامات، وكان شيخاً لما يقرب من ثلاثمائة مرید. وذات ليلة رأى في منامه صنامة صنما يجاوره، فهب من نومه وتمكن الضيق منه وشغل قلبه، فذهب إلى بلاد الروم وصحبه كل مریده ووصلوا ذات يوم إلى مكان ما ورأوا كنيسة، فنظر الشيخ فإذا به يرى على السقف فتاة مسيحية، فوقع في عشقها.

وسرعان ما خلع المرقع ولبس ثياب الرهبان وعقد حول وسطه الزنار. فقال المریدون: ما هذه الحالة؟ فأجاب: إن ما أصابنا بسبب القلب، ولا يمكننا مخالفة القلب، فشرط الأعمال صدق الظاهر والباطن. وبعد طول نقاش بينهما عاد المریدون من الدير وتركوه إلى القضاء والقدر، وبدأ يعمل في خدمة الخنازير.

وكان له مرید بخراسان وكان رجلاً عظيماً فعرف هذه الحالة فأسرع صوب مكة وقال للمریدين: أين الشيخ؟ فأخبره المریدون بما وقع للشيخ. فقال لهم: لما لم تقيموا حيث يقيم؟ فقالوا كنا نرغب في ذلك ولكن الشيخ رفض وانتهى الحديث

¹⁸. فروز انفر، شرح ونقد وتحليل آثار شيخ فريد الدين محمد عطار نيشابوري، (طهران: 1340هـ). ص 329

¹⁹. فروز انفر، شرح ونقد وتحليل آثار شيخ فريد الدين محمد عطار نيشابوري، (طهران: 1340هـ). ص 333

بينهما إلى أن أعد الشيخ والمريدون عدتهم للسفر إلى بلاد الروم.

وفي ذات أمسية رأى ذلك الشيخ الرسول عليه السلام فسأله الرسول ماذا تفعل ببلاد الروم؟ فأجابه الشيخ سائلاً: وماذا أنت فاعل ببلاد الكفر؟ فقال الرسول عليه السلام: جئت لكي أخلص شيخاً عوتب من قبل.

فاستيقظ الشيخ في الحال، ورأى شيخه يلقي عن نفسه رداء الرهبان وقطع الزنار، ثم أحضر الماء واغتسل وجدد إسلامه وأعاد ارتداء لباس الإصلاح وحينما عرفت الفتاة هذا الحال أقبلت إليه، وطلبت منه أن يعرض عليها الإسلام فعرضه عليها وأسلمت وعادوا جميعاً إلى الكعبة.

إذا قارنا بين قصتي الغزالي والعطار نجد أن أركان القصة فيهما واحدة، ولكن نجد بعض الاختلافات اليسيرة، فعدد المريدين في قصة الغزالي ثلاثمائة وفي منطق الطير أربعمائة. كما نجد اختلافاً في قصة إسلام الفتاة المسيحية في القصتين كما أن نهاية القصة المختلفة في الكتابين فتحفة الملوك لم تشر إلى وفاة الفتاة المسيحية بعكس منطق الطير.

كما أن العطار بخيال الشاعر حاول الإفاضة في المناقشة الممتعة التي حدثت بين الشيخ ومريديه بعد أن انحرف، وكذلك في مناجاة الشيخ لمعشوقته.

وعلى هذا فيمكن الموافقة على أن العطار أخذ فكرة قصته من تحفة الملوك للغزالي وأضاف إليها الكثير من خياله الشعري، فجاءت على هذه الصورة التي وجدناها عليها في منطق الطير.

ولكن من هو الشيخ صنعان:

ذكرت من قبل أن الأستاذ مینوی يرى أنه الشيخ عبد
الرازق بن همام وتابعه في هذا الرأي الأستاذ فروز انفر، فمن
هو الشيخ عبد الرازق بن همام:

يخبرنا ياقوت الحموي في نهاية الحديث عن مدينة
صنعاء باليمن: ومن مشايخها الشيخ عبد الرازق بن همام بن
نافع أبو بكر الحميري أحد الثقات المشهورين. وكان مولده
عام 129هـ، وأنه التقى بأحمد بن حنبل، ولكن في آخر حياته
أصيب الشيخ بالعمى فضعت الثقة في الأحاديث التي كان
يرووها، كما اتهمه البعض بالتشيع.²⁰

وربما أن إسناد هذه القصة إليه جاء نتيجة لتشييعه،
فحاول خصومه التماذي في اتهامه حتى أوصلوا هذا الاتهام
إلى حد الكفر واعتناق المسيحية.

²⁰. ياقوت الحموي، معجم البلدان، (القاهر: 1916). ج 5، ص 389